الفصل الثاني

شهادات

سعيد يقطين
والسفر في الحكايات

سعيد بنگراد
(ناقد وباحث مغربي)

شكل سعيد يقطين داخل حقل النقد الأدبي ظاهرة مميزة لا من حيث غزارة الإنتاج وتنوعه واستمراريته فحسب، ولا من حيث أصالة الأطروحات التي ظل يدافع عنها لمدة قاربت الثلاثين سنة وما يزال، بل لأن مشروعه النقدي رأى النور في فترة تاريخية مفصلية في تاريخ الممارسة النقدية في عموم الفضاء الثقافي العربي، وفي المغرب أساسا. فهو يعتبر "شاهدا" على سلسلة من التحولات الجذرية التي امتدت إلى كل المعايير والإبدالات التي كانت تحتكم إليها النخبة المثقفة من أجل تقويم المنتوج الثقافي في كل المجالات المعرفية.

كان ذلك في بداية الثمانينات حين بدأت صروح النقد الاجتماعي والإيديولوجي تتهاوى، فقد أصبحت غير قادرة على مسايرة النفس الإبداعي الجديد بهمومه الجمالية الجديدة، وبمضامينه الجديدة أيضا، تماما كما تهاوت قبلها كل الأحكام الانطباعية التي ظلت تحاور النص الأدبي من خارجه. فلقد عرفت نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات انحسار المد الإيديولوجي الذي كان يفسر كل شيء بالإيديولوجيا بما فيها الإيديولوجيا ذاتها، و لم يكن النص داخل هذه الممارسة النقدية، في أغلب الأحيان، سوى ذريعة لقول شيء في السياسة ذما أو مدحا وتبجيلا. لقد كان النقاد يبحثون عن" النظام السياسي" وتجلياته في النص، و لم يبحثوا أبدا عن "نظام النص" نفسه.

و لم يكن هناك من بديل، محلي أو عربي، إلا ما يمكن أن يأتي من النقد الغربي الذي ظل يدعو، منذ الستينيات من القرن الماضي، إلى العودة من جديد

إلى النص، "فلا خلاص خارجه" (وسيتم ذلك في كل مجالات المعرفة الإنسانية). فالسر موجود في هذا النص لا فيما يمكن أن يقوله محيط لا يصبح دالا إلا من خلال اللغة وضمن إكراهات التمثيل والتقطيع المفهومي داخلها. وفي هذا السياق شكلت البنيوية اختيارا معرفيا جديدا سيسمح لـيقطين باستعادة ما ضيعته الإيديولوجيا في طريقها وهي تبحث عن مضمون لا يكترث كثيرا للأشكال الحاملة له.

بالتأكيد ستسقط أشياء كثيرة في هذه البنيوية ذاتها، ولكنها ستمكنه هو وغيره ممن جايلوه أو جاءوا بعده، من اكتشاف حقائق نصية لم يكن الناس يعيرونها أي انتباه، أو على الأقل، لم تكن تشكل أولوية خاصة في الأجندة النقدية المنتشرة آنذاك. لقد عاد بنا، من خلال سلسلة من المقالات التطبيقية التي كتبها بين نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات، إلى النص لنكتشف أن المعنى في هذا النص لا خارجه، وأن مكوناته هي المدخل الأساس للتعرف على بعض جوانبه. ومنذ تلك الفترة انصب اهتمامه على النصوص السردية في المقام الأول.

في هذه المرحلة بالذات سيتعرف القراء على ناقد جديد بلغة جديدة وبإبدالات معرفية جديدة؛ لقد تجرأ واستعمل قاموسا لا يكترث كثيرا لإحالات النصوص على "الطبقات" و"صراعها وتطاحنها" في النص أو في خارجه. لقد بدأ يتحدث عن النصوص، كما يمكن أن يكتبها مبدع استنادا إلى إكراهات بنيوية أصلية هي الأساس الذي تقوم عليه هذه النصوص وتستوي عوالمها الدلالية. لقد بدأ القراء يكتشفون في هذه الكتابات الجديدة والجريئة على عوالم ظلوا يتحركون داخلها دون أن يعرفوا تفاصيل وجودها (أي بنيتها). لقد اكتشف هؤلاء القراء نصوصا لم يكفوا عن قراءتها منذ عشرات السنين، ولكنهم لم ينتبهوا إلى ما يؤسس خصوصيتها الفعلية إلا عندما أثار هو وآخرون جاءوا بعده الانتباه إلى البناء النصي باعتباره هو أصل المتعة ومنبع الدلالات.

وفي هذا السياق سيقوم يقطين بإغناء النقد الأدبي العربي بمجموعة هائلة من المفاهيم والمصطلحات التي كانت غير معروفة في التراث العربي ويكاد يجهل عنها كل شيء ممارسو النقد في المغرب، وفي عموم الفضاء الثقافي العربي. وتلك كانت أولى إسهاماته، وليس أقلها، في مجال النقد الأدبي الحديث؛ ذلك أن النقد

هو في المقام الأول مفاهيم وليس حدسا يتغير بتغير مزاج الممارس. وهكذا لم تكن السرديات عنده "شطحة" لغوية بلا غطاء، بل كانت في المقام الأول أدوات إجرائية بدونها لا يمكن قول أي شيء عن النص.

لقد كان من الأوائل، إن لم يكن الأول، الذين أشاعوا مفاهيم السرديات كما دعا إليها جيرار جونيت وعممها هو في الفضاء الثقافي العربي، لدرجة أن نقاد الرواية في عموم المشرق العربي تعرفوا على سرديات يقطين قبل أن يتعرفوا على سرديات جونيت، فمن خلال قراءته هو وتصوره واجتهاداته تسلسلت العشرات من المفاهيم إلى النقد الروائي خاصة، وهي التي ما تزال متداولة في هذا النقد إلى الآن. لقد شكل الجسر الضروري بين التقليد النقدي الفرنسي (الغريب في التراث النقدي المشرقي) وبين التقاليد النقدية العربية التي كانت قد فقدت منذ فترة بريقها.

وقد يعتقد البعض أن الأمر يتعلق بمفاهيم كان من الممكن لأي كان البحث لها عن معادلات في العربية لكي يستقيم كل شيء. إن الأمر على خلاف ذلك، فقبل امتلاك هذه المفاهيم كان من الضروري إعادة تعريف النص، ولكي يعرف هذا النص كان لابد من استحضار مادته التي هي اللغة. وهكذا، فإن الأمر كان عنده، في الممارسة والتطبيق على حد سواء، يتعلق باستيعاب إبدال معرفي جديد هو الذي يجب ترجمته إلى العربية من خلال تلك المفاهيم، وهذا ما قام به سعيد يقطين. لم يترجم مفاهيم، بل عمل على استنبات رؤيا جديدة للنص في الفضاء الثقافي العربي. ويبدو لنا أن هذه الخطوة هي الإسهام الحقيقي (الحضاري والثقافي) للعمل الذي قام به في الثقافة العربية، وفي النقد الأدبي على وجه الخصوص.

لذلك لا يهم كثيرا ما يمكن أن نقوله عما كتبه يقطين في تلك البدايات الأولى وما كتبه غيره، فتلك مسألة لا قيمة لها في تاريخ التحولات المعرفية الكبرى، فالأهم أن الشعلة انطلقت، وأن من أوقدوها هم أنفسهم، ومنهم يقطين في المقام الأول، من سيستعيد ما دمرته البنيوية أيضاً في طريقهما وهي تعرض عن الإحالات الرمزية التي تمكن النص من الحياة ضمن سياق رمزية رحبة موطنها اللغة بكل ذاكراتها البعيدة منها والقريبة، فالحدود المغلقة لا يمكن أن تستوعب مجمل الإحالات الدلالية التي يزخر بها النص.

ولكنه سيستعيد ما ضاع ضمن مكتسبات المقاربات الجديدة لا خارجها. وتلك مسألة بالغة الأهمية. لقد طور يقطين مشروعه من الداخل دون أن يتبرأ من منطلقاته الأولى، فقد ظلت تلك المنطلقات ثابتة ومركزية وستظل كذلك في كل ما سيكتبه فيما بعد، بما فيها نصوصه حول الرقمية وأدبها الجديد. فذاكرات النصوص وقدرتها على التفاعل فيما بينها لا يلغي إمكانية اكتفائها بذاتها كشرط لتحديد الممكن والمحال داخل النص.

وهكذا، فإن المتتبع لكتاباته سيلاحظ وجود نمو متصاعد كانت خطوطه المتفرقة تستعيد في كل لحظة ما تم إهماله في مراحل سابقة: سيستعيد البعد الاجتماعي من خلال إعادة الاعتبار للإحالات الضمنية التي تشكل غنى النص وقدرته على الانقراء ضمن محيط أوسع من ذاكرة حرفية مباشرة، فكان أن منح القارئ موقعا داخل مشروعه، فكانت "فكرة التجربة" عنده وثيقة الصلة بما يمكن أن تأتي به سيرورات التلقي التي لم تعد تكتفي برصد ما هو مودع في النص، بل تسهم في بنائه أيضا. فلا يمكن الحديث عن معنى "خام" موجود في انفصال كلي عن قرائه.

وهو ما قام به أيضاً عندما تحدث عن انفتاح النص على ما يمكن أن يشكل الأساس الذي تقوم عليه البنية المتحققة. ولقد كان كتابه "انفتاح النص الروائي" الذي نشره سنة 2006 شاهدا على استعانة يقطين بإبدالات جديدة ستوسع من دائرة الرؤية عنده. وكما سبق أن أشرنا إلى ذلك، فإنه فعل ذلك ضمن ممكنات النموذج النقدي الذي شكل منطلقاته الأولى. فلا يمكن فهم "الاجتماعي" استنادا إلى شيء آخر غير ما يمكن أن تقوله لغة النقد نفسها. إننا نتعرف على الاجتماعي من خلال مكونات نصية داخلية لا استنادا إلى إسقاطات السياسة أو مغرضات "الاستعمال". وبعبارة أخرى، يتعلق الأمر بممكنات التناسل الدلالي الذي هو وليد التفاعل بين المتحقق منها وبين المضمر أو الضمني.

وهو أمر يمكن التأكد منه أيضاً من خلال الإحالة على ما كتبه مع نهاية التسعينيات، فقد انفتح هذا المشروع على كل منجزات السرد العربي وعلى فرضيات جديدة للعمل. فقد عاد من جديد إلى محاورة السرد العربي باحثا عن مضامين جديدة استنادا إلى تأويلات جديدة تنصب على مكونات ما خلفه كل

التراث العربـــي في ميدان السرد. وضمن هذا الانفتاح تصنف أعمالـــه: "ذخـــيرة العجائب العربية" (1994)، و"**الكلام والخبر**" (1997)، و"**قال الراوي**" (1997). وهي الكتب الثلاثة التي حاول يقطين من خلالها فتح حوار مـــع أدب لم يســـتقر تصنيفه النوعي إلى الآن، رغم احتلاله موقعا مميزا داخل الوجدان الثقافي العربـــي.

بل سيحاول في كتاباته الأخيرة المزاوجة بين ظـــاهرة تنتمـــي حصـــريا إلى النصوص المكتوبة "المنتهية" في الزمان وفي الفضاء، ويتعلق الأمر بالتنـــاص، وهـــي مقولة ظهرت في السبعينات لكي تبحث في الذاكرات المتعددة للنص الواحد، وبين ما يسميه "الترابط الضروري" بين صيغ القول رغم ما يفرق بينها. وهو ما سيدفعه لاحقا إلى الحديث عن "التفاعل النصي" بديلا للتناص الذي ظل مقولة غامضـــة لا من حيث مضمونها التقني، بل من حيث الحقول التي يجب أن تغطيها (هل نســـمي السرقة تناصا؟). وفي هذا الاتجاه قدم كتابيه: "من النص إلى النص المترابط" 2005 و"النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية: نحو كتابة رقمية عربيـــة"، (2008). في هذه الكتب سيظهر اهتمام جديد ليقطين سيشمل نصوصا أخرى غير السرد الذي شكل مادة اشتغاله لعقود طويلة.

استنادا إلى كل ذلك وأشياء كثيرة أخرى، شكل يقطين في الفضاء الثقـــافي العربـــي ما يشبه المدرسة في ميدان الدراسات السردية التي سيظل اسمه مرتبطا بهـــا فترة طويلة.

سعيد يقطين:
التجربة البلورية

فريد الزاهي
(ناقد وباحث مغربي)

لم أتعود على كتابة شهادات شخصية، عن أصدقائي ومعارفي، من المحايلين لي بالأخص. أحس الآن بأن ردحا من الزمن مضى، اشتعل فيه الرأس شيبا، وأن كل تكريم، إن كان يحمل معه الاعتراف بالآثار التي يتركها الشخص وراءه، فإنه أيضاً علامة على الإحساس بوطأة لزمن، ومسيره الجارف. ومع ذلك فإن الرغبة تمسك بي للكتابة عن صديق قديم، ومن خلاله عن مرحلة ساخنة ومشاكسة، من وجودنا الشخصي والجماعي...

التقيته ذات صباح أو مساء، في مكتب صديقنا المشترك "أحمد العمراوي"، وهو بالمناسبة أخ لصديق حميم لي، كنت قد تعرفت عليه لتوي، وبدأنا نشكل مجموعة متجانسة في أواخر سنة 1976. كنا عندها شبابا لم تلمس الموسى لحانا المستحيية من البزوغ، متشبعين بكتابات "ماركس" و"لينين" و"ماو تسي تونغ" و"تروتسكي"... ومتولعين بكل ما يصدر من شعر بالمغرب، وجنوب لبنان، وأمريكا اللاتينية. نعشق السينما ونرتاد معا النادي السينمائي بالمدينة الجديدة.

التقيته مرارا حين كان يرتاد مكتب صديقه "أحمد العمراوي" (الذي صار اليوم شاعرا معروفا). يجالسنا وندخن السجائر الرخيصة وننـاقش في السياسة والأدب بالخصوص. كنا مولعين بالروايات بحيث تدور الواحدة منها بيننا بسرعة البرق. نرشفها كما نرشف الشاي الساخن، ونناقشها في الغد من دون أي مواضعات للنقاش. كان سعيد حينها في المركز الجهوي مع أحمد، وكان أحمد

يتكلف باقتناء ما جدَّ واستجد من الكتب الروايات، التي كنا نتهافت على نسخها القليلة في المكتبات ولدى الوراقين...

كنت معجبا أيما إعجاب بهدوئه وبطريقته المتفردة في النقاش وبلغته التي ينحتها من دون تردد أو تأتأة. كانت حركاته وطريقته في النقاش تؤكد على حماسه الباطن، واقتناعه العميق بالحوار والنقاش. وحين كتب عمود "رأينا" في أول إصدار لجريدة أنوال، أحسست بحرقة الانفصال السياسي الذي سيطبع مسيرينا من غير أن يكون قطيعة. فما جمعنا من حساسية أدبية مشتركة كان أكبر من أن تنغِّصه الخلافات السياسية التي طبعت المرحلة.

قلَّت النقاشات السياسية، لتغطي عليها المسامرات والمناظرات الأدبية. فكان يقرأ لنا بواكير ما ننشره بجريدة المحرر والعلم من نقد وشعر وقصة وخواطر ثقافية. وحين كان يتحدث عن مجموعتنا كان يقوم بذلك بنبرة الإعجاب والتشجيع وبعطف الأخ الأكبر.

أذكر مرة أننا كنا نتجول بالمدينة الجديدة ومررنا أما كشك فبدت لي رواية حميد الحميداني الأولى دهاليز الحبس القديم. تصفحتها ثم رددتها إلى مكانها لأني لم أكن أملك ثمن اقتنائها. وما أن أدرت وجهي ماشيا حتى كان قد نقد البائع المبلغ ودسها في يدي بابتسامته الوديعة المعهودة.

لسعيد يقطين أكثر من وتر في قوسه. فقد كتب مذكرة إجازة جيدة عن بدايات الشعر المغربي، وعن أحد رواده الكبار. وطبعا، قرأنا تلك المذكرة التي نجد فيها توجهه آنذاك إلى مقاربة اجتماعية للشعر، وتعرفنا من خلالها على تلك البدايات في الستينيات. بيد أن ما أثر في، واستمتعت به، هو شغفه الكبير بالأغنية والثقافة الشعبية، من عيطة، وغناء اجتماعي، وأمازيغي، وغيره. وعبره كانت إطلالتي الأولى على أصناف العيطة من "عبدي" و"مرساوي" وغيره، وأدين له بحبي لمعزوفات "رويشة" و"عروب" و"نعينعة"، ولاكتشاف الثنائي "قرزز" و"محراش" الفكاهيين، اللذين غطت عليهما شهرة "قشبال" و"زروال". وكثيرا ما عدت إلى هذه الفترة بعد أن خاب أملي في الدراسات الأدبية المغربية من كثرة المتهافتين عليها، والناحلين للنظريات المسكوكة فيها، وتساءلت بيني وبين نفسي: لو استمر سعيد في بلورة هذا الاهتمام لكان أكبر متخصص في هذا المضمار. بيد

أن الدراسات الأدبية والنقد كان لهما سلطتهما الرمزية في تلك المرحلة، وهي سلطة كانت تترجم ضربا من الفراغ في الاشتغال السياسي لدى مثقفينا، نظرا لسياسة القمع والكبت التي كانت سائدة في تلك المرحلة. ذلكم ما قد يفسر تحولنا للأدب وللدراسات الأدبية باعتبارها منفذا لتفريغ المكبوت الاجتماعي.

حين انتقل سعيد إلى التدريس بالدار البيضاء، لم تنقطع الأواصر بيننا غير أن لقاءاتنا تباعدت، واهتماماتنا السياسية تفرقت. بيد أن كل لقاء كان يتحول إلى دفء علاقي رائع. فمن طبيعة سعيد أن يسألك عن أحوالك بالتفصيل، عما تقرأ وتكتب. وحين تجيب باقتضاب لا يستنكف عن تعميق السؤال. هذا الاهتمام الأخوي ظل يسايره إلى حدود اليوم بحيث ما إن تبدأ المشافهة حتى تتحول إلى نقاش يبين فيه سعيد دائما عن ثقافة موسوعية عارفة بتاريخ الثقافة العربية والمغربية وبالمرجعيات السوسيولوجية (آنذاك) والتأريخية والوصفية للأدب. وقد جاء كتابه الأول عن القراءة عاكسا لهذا الهم البنائي والتأسيسي الذي قل أن نعثر عليه لدى المجايلين له، الذين يغلب على كتبهم اللغو الإيديولوجي. فهو وإن لم يكن قد تحرر حينها من تلك النبرة إلا أنه كان محللا أكثر منه مقوما، يفضل مسير البرهنة والتحليل على النتيجة والنقد.

ومع أن تكويني حينها كان فلسفيا فإن نقاشاتي المستمرة معه تفصح دائما عن تلك الثقافة الفلسفية التي يتمتع بها، الراجعة بالأساس إلى تفاعل المباحث التي كان الأدب والتحليل الأدبي يعيشها سواء لدى لوكاش أو غولدمان أو غيرهما، بحيث لم أحس أبدا معه بأني أناقش فقيها في الأدب بقدر ما أناقش فيلسوفا للأدب.

ولسعيد يقطين طريقة خاصة في الكتابة بحيث يمكن أن تنزع الاسم كي تلقى نفسه ولغته ومعجمه ومسارب لغته حاضرة. هذا بالضبط هو ما كان يجعلني وأنا أستاذ بكلية الآداب بمكناس، مدرسا للسرد، أنصح طلبتي بالرجوع مباشرة إلى المراجع الفرنسية أو الاعتماد على كتابات سعيد يقطين لصدقيتها في التعامل مع مصادرها، ولعدم سقوطها في الابتسار والاقتباس الفج، والاختزال المهول، والتغاضي عن المرجعيات الفكرية والفلسفية والثقافية. بل ذلك ما كان يجعلني وأنا أناقش البحوث الكثيرة عن السرد والسرديات أشم رائحة السطو على كتابات سعيد، التي يمارسها بعض الطلبة، من خلال لغتها البينة المتميزة وتركيبتها الخاصة.

والحقيقة أن "أسلوبه" كان يظل عصيا على الاختصار بحيث يضطر الطالب النبيه إلى اعتماده نصا فيما يسقط الطالب المتسرع في فخ السرقة الأدبية المكشوفة.

وفي وقت صارت الدراسات الأدبية بالمغرب والعالم العربي تفوق أحياناً المنتجات الأدبية التي تكتب عنها، وصرنا ندرك أن هذا المنحى يعبر عن خلل أساس في مجال العلوم الإنسانية عموما يهمش مجال الدراسات الفكرية والميدانية من فلسفة وعلم نفس وأنثربولوجيا وعلم اجتماع (ونحن نعلم جيدا حاجتنا الراهنة والمستعجلة لها)، في هذا الوقت، تبدو أعمال سعيد يقطين (بعد أن مرت بهوس مرحلة التنظير السرداني) منفتحة على قضايا العلوم الإنسانية، من مؤسسة ثقافية، وعالم رقمي افتراضي، مما يجعلني أزعم أن هذا الانفتاح لم يفارقه أبدا حتى وهو ينظر للتناص والتقنيات السردية، التي هجرها أصحابها (جيرار جنيت توجه للجماليات، وتودوروف لحبه الأول أي الفلسفة وتاريخ الأفكار) وتركوا شبابنا يلوكونها كما لو كانت مسلمات مقدسة.

بهذا أعترف أن هذه الشذرات من الذاكرة تحمل في طياتها عناصر لتقويم مرحلة كاملة، يحمل صديقنا، المحتفى به هنا، بعضا من همومها اللغوية والكتابية. بيد أن الوقت لا يسمح هنا بطرح أسئلة كتابتنا النقدية، ومرجعياتها المتحولة وطرائق اشتغالها ونوعية أصالتها ومدى صمودها أمام التاريخ.

وبهذا المعنى فتجربة الرجل تشخص مسير النقد والتنظير الأدبي في المغرب والعالم العربي في تجددهما وانزياحاتهما ووعيهما الشقي وتحولها وأسئلتهما القلقة. وأعتقد أن سعيد يقطين ظل وهو في خضم هذه التحولات التي دامت أكثر من ثلاثة عقود، يقظا لمساربها الداخلية ولأقبائها ومجاريها المضمرة والمعلنة، وفي ذلك تكمن فرادته وقوة كتاباته ونسغُها الحركي.

الرباط، في 25 أكتوبر 2011

تأملات في توازي تجربتين

سعيد الغانمي
(ناقد وباحث عراقي)

لكأنني حين أكتب هذه الشهادة عن سعيد يقطين أكتب عن نفسي. فبيني وبين الصديق سعيد يقطين علاقة ليست بالوثيقة، وليست بالمنقطعة، حتى لكأننا راضيان بهذا الاحترام الصامت، المتبادل عن بعد. لم نوثقه يوماً باتصال شخصي أو رسالة خاصة أو لقاء بموعد، لكننا في الوقت نفسه، نحرص على توثيق صلة لم نتعمدها، وتعميق تجربة وجدنا نفسينا نشترك بها رغماً عنا. كانت بدايتنا نحن الاثنين في وقت واحد تقريباً، وفي مكانين متقابلين، هو في أقصى المغرب العربي، وأنا في أقصى المشرق العربي. وكانت عدتنا الثقافية متوازية أيضاً، تتشكل من نصوص تراثية لا تنقطع نشعر أنها ما زالت غابة عذراء، لم تطأها محاريث النقد الحديث، وطموح باستثمار المناهج النقدية الحديثة، في الفرنسية عند سعيد يقطين، وفي الإنكليزية عندي. وبرغم أن لقاءاتنا لا تكاد تزيد عن أصابع اليدين في بغداد والقاهرة وعمان، فإنها كانت دائماً تنقل لنا توازي تجربتينا. وأذكر أننا التقينا مرة في بغداد، فأخبرني سعيد أنه رُزق بابنة سماها "فاطمة الزهراء"، وكنت قد رُزقتُ في الوقت نفسه بابنة سميتها "فاطمة"، فتعجبنا من هذا التناظر غير المقصود. ابنتي فاطمة الآن تلميذة في كلية الهندسة في جامعة كيرتن، ولست أشك في أن فاطمة سعيد يقطين في المرحلة نفسها.

لعل هذا التوازي في التجربتين يتيح لي استعمال ضمير المتكلم. فكلانا كان منذ بدايته يفكر بتأصيل مشروع نقدي مستوحياً العدة الثقافية التي وفرتها البنيوية في ذلك الحين. وأذكر أنني تحاورتُ في منتصف الثمانينات مع الزميل يقطين حول

المنهج البنيوي. كان رأيي، وما زال، أن البنيوية تعلمنا الانضباط المنهجي على مستوى التعريف والتصنيف، وأن فاعليتها تنتهي بعد ذلك تماماً، ليستكشف القارئ غزارة النصوص وأبعادها التأويلية. لم يؤمن جيلنا بالبنيوية كجدار منهجي نهائي وأخير قط. وربما كانت مخاوفنا من أن تتحول البنيوية نفسها إلى أيديولوجية بديلة أكبرَ من حماسنا للدقة التي تعدنا بها. ولهذا لم يَدْعُ أيٌّ منا إلى "الميتات" الكثيرة التي كانت تبشر بها البنيوية: موت الإنسان، موت المؤلف، موت المعنى. "الموت" الوحيد الذي لم ننقطع عن الدعوة إليه هو "موت الأيديولوجية"، بمعنى الأوهام الاجتماعية والثقافية والانفعالية التي يخلقها المجتمع للحفاظ على منظومة بنى متهاوية فات أوانها. كانت حقبة الثمانينات، وهي الحقبة التي تفتح فيها وعينا النقدي والاجتماعي، هي الحقبة التي أكملت فيها الدول العربية ابتلاع مجتمعاتها، لكي تبتلع السلطاتُ الدول. تطحن الدولُ المجتمعاتِ، وتطحن السلطاتُ الدولَ، وآلة هذا الطحن المتبادل هي الأيديولوجة. ولهذا كنا نحس بخطورة هذا الوحش المتنكر. لم نكن أبطالاً، ولا فرسان عصر، لكنا كنا نضمر الحب لثقافاتنا وبلداننا، ونخشى عليها من غضب الانفجار بوجه كابوس الأيديولوجية الذي لا يكف عن التضخم، حالمين بأن يشفع لنا حبنا هذا بمصارحتها.

ومرة أخرى، مع انتهاء العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، يشقّ كلٌّ منا طريقه بهدوء وصمت وتوازٍ آخر. ينكب سعيد يقطين على الثورة الحروفية التي أنجزتها الاتصالات الحديثة في علوم الحاسوب والأنترنيت. بينما يتجه بي البحث نحو "ثورة حروفية" أخرى في النقوش والكتابات القديمة. وقد يقول نقادنا الأشداء ممن لا يعملون ولا يسرهم أن يعمل الآخرون إنكما "بنيويان" ارتددتما نحو بنيوية ميتة أخرى. وقطعاً فهذا الكلام غير صحيح. ففي دراسة "الحروف"، مهما يكن شكلها وتاريخها، يكمن جوهر المشروع البشري. والمرء مخبوء تحت لغته، سواء أكانت هذه اللغة حروفاً رونية أو سبئية أو مسمارية أو رموزاً ألكترونية.

لكأننا، أنا والزميل يقطين، مُصرّان من غير إصرار، ومتحالفان عفو الخاطر، على المحافظة على توازي تجربتين، تتماثلان في البساطة والطموح والروح النقدية واليقين المتواضع بأن قيمة الأعمال تكمن في انفتاحها، لا في انغلاقها.

سعيد يقطين:
الناقد المبدع، كما عرفته

محمد عز الدين التازي
(روائي وناقد مغربي)

-1-

تربطني بالصديق العزيز سعيد يقطين علاقة حميمة لم تتبدل مع التحولات التي عرفتها الساحة الثقافية بتأثير من تحولات أخرى عرفتها الساحة السياسية. فقد جرى ماء المحبة بيني وبينه وما زال يجري، منذ أواسط السبعينات من القرن الماضي، حيث تعرفت على الشاب سعيد يقطين وهو يزورني في مقر عملي بثانوية النهضة بفاس ليقدم وهجا من أسئلته حول الراهن الثقافي في تلك المرحلة. كان جريئا في طرح أسئلته، على خجل ودون وثوقية كتلك التي كان يحملها شبان ذلك الوقت وهم يصدرون بعض الأحكام الجاهزة. أصغيت إليه باهتمام وحاورته ثم دعوته إلى لقاءات أخرى يمكن أن تتسع بشكل أفضل للحوار. كنت في تلك المرحلة، وما أزال، أعتبر أن الصداقة بين رجلين لا يمكن أن تنعقد إلا إذا جمع بينهما شيء معين، وكنت أعتبر أن ما يجمعني بمن أعتبرهم أصدقاء هو سؤال الثقافة والإبداع، ولا شيء غير ذلك، فمن خلال الحوار الثقافي على تعدد أسئلته وأجوبته الممكنة يتسع أفق التأمل والتفكير ويمد جسورا أخرى للمحبة رغم الاختلاف، والمحبة هي أولى الخطوات نحو البوح الإنساني العميق، والمكاشفة، وتسكين القلق الثقافي والسياسي بقلق آخر. ذلك ما حدث لي مع سعيد يقطين في تلك الفترة من منتصف السبعينات من القرن الماضي، فأحببت أن يكون صديقا، ولما كنت في تلك الفترة كاتبا عاما لفرع اتحاد كتاب المغرب، فقد لاحظت رغبة سعيد في

تثمين تلك التجربة. كان يحضر بعض اللقاءات دون أن يتدخل، ولما أخبرته بمشروع فرع الاتحاد الذي يروم طبع كتب لأعضائه فقد أخبرني بأن أخا له يشتغل في مطبعة بظهر المهراز تقع تحت مسؤولية وزارة الثقافة، وأنها مع ذلك تقوم بأعمال حرة، فتواصلت معه ليقدم لي عرض الأثمان. كنا في مكتب الفرع قد قررنا طبع بعض أعمال الأعضاء في الفرع، من إبداعات وكتب فكرية، واكتتبنا الأعضاء أنفسهم فقدموا 500 درهم لكل واحد إضافة إلى 2500 درهم التي تبرعنا بها نحن أعضاء المكتب، شريطة ألا يطبع أحد منا كتابا له حتى لا يعد ذلك استغلالا لموقعه في المكتب، وبذلك تجمع مال لا بأس به، كان يكفي لطبع كتابين أو ثلاثة. كان سعيد يقطين يتابع معي هذه العملية، باهتمام كبير، وهي العملية التي أحبطها المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب فأرجعنا التبرعات إلى أصحابها ودفعنا من تبرعاتنا بعض الخسارات.

بقيت صورة سعيد يقطين مشعة في خاطري، وما زلت أتذكر حواراته الهادئة معي، فهو لم يكن منفعلا، وكان برصانته يخفي قلقا سياسيا وثقافيا تظهر توتراته على ملامحه وحركاته، لكنه لم يكن يقذف في أحد أو يشتم جهة معينة أو يتزيد في القول. كان يلجأ إلى حكمة الصمت، وإن تكلم فهو ينطق بالحكمة، خلافا لمثقفين متهورين كانوا يرشقون الجميع بالحجارة.

-2-

مع بداية الثمانينات كان الظهور الأول لسعيد يقطين كناقد أدبي، الأمر الذي يعني أنه كان بصدد التهيؤ لهذا المرام من خلال القراءات النظرية وقراءة النصوص، وكان ظهور كتابه: "القراءة والتجربة" حدثا نقديا يضاف إلى الإنجازات النقدية لنقاد مغاربة أسسوا لعلاقة المنهج بالقراءة التي تشتغل على النصوص، فقد عرف النقد الأدبي في المغرب خلال العقد الثمانيني من القرن الماضي طفرة نوعية ساهمت ترجمة النظريات التي تتعلق بالنقد الجديد في وضع الكثير من البصمات عليها، وكان ذلك أمرا إيجابيا، أخرج النقد المغربي من القراءات الإسقاطية أو التعليقية ومده بآليات جديدة للكشف عن مكونات النص الأدبي. وفي هذا الإطار، جاء كتاب سعيد يقطين النقدي "القراءة والتجربة"، مستفيدا من المنهج

البنيوي وما يقدمه للتحليل النصي من دقة في الوصف. ولقد فرحت بهذا الكتاب لسببين:

أولهما: لأنه أعلن عن ناقد جاد تجاوز ما كان يغلب على أقلام النقاد من أحكام مسبقة وتأويلات لا تحتملها النصوص، فقد لجأ الكتاب إلى دراسة الأعمال الروائية دراسة محايثة، لا تحفل بالمؤلف بقدر احتفائها بالنص ولا شيء غير النص.

وثانيهما: لأن الكتاب تضمن دراسة مطولة لروايتي "رحيل البحر"، اشتغلت على التوصيف البنيوي الذي كشف عن مكونات العمل الروائي بكثير من ذكاء القراءة وحذق الناقد وهو يكشف عن الصوغ الجمالي للرواية.

وإذن فقد كان هذا الكتاب النقدي الأول الذي نشره سعيد يقطين، فاتحة تفتح الأفق لناقد حصيف المعرفة، رهيف الحس بمكونات وجماليات النصوص، لغته النقدية خالية من الحشو والإطناب، وعلى ما فيها من اقتصاد لغوي، واستعمال للمصطلحات، فهي لا "تَتَقَعَّرُ" ولا "تَتَغَوَّرُ"، بل إنها تبدو في سلاستها وهي تصيب المعنى. في هذا الاتجاه أصبح للناقد الدكتور سعيد يقطين مشروعه النقدي الواسع الذي يجمع بين التنظير والممارسة، وينفتح على التراث السردي العربي كما ينفتح على الكتابات السردية الجديدة، وهو في هذا المشروع، وما يقدمه له من تنظير، لم يبرح ذلك الموقع القرائي الذي اختاره منذ البداية، وأعني به التحليل البنيوي للنصوص، فقد رافق "جيرار جنيت" من "المتعاليات النصية" إلى "التعالقات النصية" مستلهما الأطر النظرية التي تفتح بابا واسعا بقراءة جديدة للنصوص تحترم خصوصيتها، ومن أجل الكشف عن هذه الخصوصية، لجأ الناقد إلى العديد من المفاهيم والنظريات التي تساعده على تقديم قراءة جديدة للمتن السردي العربي، قديمه وحديثه على السواء، مبرهنا على قضية أساس تعني أن السرد العربي القديم لا يمكن أن تضاء عتماته النصية، ولا يمكن إحياؤه عبر القراءة، إلا من خلال الأطر النظرية للنقد الجديد. بذلك يكون الناقد طلائعيا يعيش ثقافة عصره ويتمثل روح العصر، وهو لا ينبذ الموروث السردي العربي ولا ينظر إليه على أنه هامش في الثقافة العربية، بل إنه يجعل منه مركزا لثقافة جديدة يتحاور فيها الموروث الثقافي مع المعاصر.

تناسلت مؤلفات الناقد سعيد يقطين الغزيرة من بعضها وكأنه لا يفرغ من كتابة كتاب نقدي إلا لكي يشتغل على آخر. ولم يكن يكرر رؤيته النقدية بين كتاب وآخر، بل كان يجددها من خلال الاشتغال على النصوص، ومن خلال إحساس عميق باختبار التنظيرات التي تبناها على تلك النصوص.

هكذا إذن، يكون الناقد سعيد يقطين قد رسخ مشرعه النقدي، وأصبح مسؤولا عنه، لكي يرعاه ويمده بآفاق نقدية جديدة تجمع بين التنظير والممارسة.

-3-

في ذلك العقد الثمانيني من القرن الماضي، ترافقت مع الصديق سعيد يقطين ومعنا الشاعر عنيبة الحمري في سفر إلى الديار السورية، في ضيافة لاتحاد الكتاب العرب. من دمشق إلى حماه وحلب وحتى اللاذقية كنا نقدم في فروع اتحاد كتاب العرب مداخلات وزعنا موضوعاتها بيننا، فكان سعيد يتحدث عن وضعية النقد الأدبي في المغرب، وكنت أنا أتحدث عن وضعية القصة القصيرة والرواية، كما كان الشاعر عنيبة الحمري يتحدث عن وضعية الشعر. حافظنا على كثير من الانسجام والتكامل بيننا من أجل تقديم صورة شبه متكاملة عن وضعية الأدب والنقد في المغرب، وكان كل شيء على ما يرام. لا يمكن أن ننسى حفاوة الأدباء السوريين بنا، وما أغدقوه علينا من محبة. لكني لا أنسى تلك الجلسة التي حضرناها في دمشق، في مقر اتحاد الأدباء والكتاب العرب، والتي ترأسها السيد علي عقلة عرسان رئيس الاتحاد فتحدثت عن اتحاد كتاب المغرب وما يشمله من انتماءات حزبية متعددة هي التي ينتمي إليها الكتاب، فرد علي بغضب وهو يشرح ما يقدمه اتحاد الكتاب العرب لأعضائه من قروض للسكن وتطبيب ومجالات للترفيه. في الفندق راجعنا حساباتنا، ولم يقل لي سعيد إنك قد أخطأت في شيء، بل قال لي إن ما قلته هو عين الصواب، ونحن في اتحاد كتاب المغرب، الذي هو مؤسسة مستقلة عن الدولة، لا ننتظر من الدولة أن تقدم للكتاب قروض السكن ومصاريف التطبيب ومجالات الترفيه، لأننا ندفع ثمن استقلاليتنا عن النظام.

من أحد الفنادق بدمشق، كلمت الصديق، الروائي الكبير، المرحوم هاني الراهب، بالهاتف، فأخبرني بأنه سوف يأتي في الحال. عندما وصل إلى ردهة الفندق

كنا ننتظره أنا وسعيد يقطين، فأقبل علينا معانقا. جلس وأخذ يتحدث عن محنته مع النظام البوليسي في سورية، وأنه يشتغل في بلد من بلدان الخليج، وقد عاد في عطلة دراسية إلى دمشق صادفت إبان عقد مؤتمر اتحاد الكتاب والأدباء العرب، فتدخل في المؤتمر داعيا إلى أهمية التعددية الحزبية في انتخابات مكتب الاتحاد وانتخاباته في المدن التي توجد له فيها فروع، فاعتبر ذلك التدخل ضدا على حزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم، وصودر منه جواز سفره ليمنع من عودته إلى ذلك البلد الخليجي الذي كان يعمل فيه أستاذا جامعيا. تحسرنا أنا وسعيد لذلك الاضطهاد الذي يعيشه كاتب روائي عربي سوري كبير في بلده، وهو من قرأنا له العديد من أعماله الروائية المؤسسة لحداثة السرد الروائي العربي، من قبيل "ألف ليلة وليلتان" و"الوباء" ودراسته عن صورة الصهيوني في الرواية العربية. فضلا عن ذلك، فقد كان المرحوم هاني لطيفا بشوشا، التقيته قبل ذلك في تونس فكان طلق المحيا، يقترب من الناس ليقدم لهم المحبة، وكان يشكر الطباخ الذي أعد لنا مأدبة تونسية تناولناها مع أداء جميل لفرقة "المالوف". في تلك اللحظة التي كنا نصغي فيها إلى هموم الروائي هاني الراهب، كان أحدهم يختفي وراء حاجز ثم يلتقط لنا صورا لم نتفطن لها إلا من خلال إشعاع الكاميرا. كانت تلك هي المرة الأخيرة التي التقينا فيها بالروائي السوري الكبير هاني الراهب، فقد تخطفته المنية.

أما في اللاذقية، فقد وصلنا في الموعد إلى مقر فرع اتحاد الكتاب العرب فوجدناه مغلقا. اتصل مرافقنا بالمسؤولين عن الفرع فأجابوا بأنهم لم يُخبروا من قبل إدارة الاتحاد في دمشق بأي نشاط ثقافي سيقام تلك الليلة. تلفنت لصديقي الناقد والروائي نبيل سليمان فاقترح ضيافتي في بيته. سألني عمن معي فأخبرته بأن معي سعيد يقطين وعنيبة الحمري. طلب مني ألا يحضر السائق معنا، ورحب بنا. ليلة لا يمكن أن ينساها سعيد يقطين في بيت نبيل سليمان، كما لا يمكن أن ينسى ليلة أخرى قضيناها في بيت شاعر سوري جمع فيها معنا الكثير من الأدباء السوريين، وعندما قرأ قصيدته التي عنوانها: من أين تبتدئ القصيدة، قمت أنا بقراءة تحليلية لعنوان وصور وأخيلة القصيدة فأعجب الشاعر بتلك القراءة وتمازجت الأرواح بيننا وبين الأشقاء السوريين حتى ارتفعت المحبة إلى سدرة المنتهى. وهو السفر المضني الذي أخذنا أنا وسعيد من دمشق إلى الطريق الصحراوي الذي رأينا عليه

آليات عسكرية معطوبة فما خرجنا من تلك الأرض الصحراوية حتى وصلنا إلى نهر الليطاني فشممنا هواء رطبا وجلسنا في مطعم ظليل بالخمائل.

أما في مدينة القنيطرة السورية، فقد وقفنا على هضبة الجولان فرأينا العمارات التي نسفها الصهاينة بالديناميت من أسسها فمالت و لم تسقط. دخلنا سينما الأندلس وقد تحولت إلى بناية مائلة فقرأنا ما كتبه الشهداء بدمائهم من استشهاد على الجدران. أطللنا من مكان عال على هضبة الجولان فرأينا الأسلاك الشائكة المكهربة ورأينا جرارات الإسرائيليين وهي تحرث الأرض، وعن قرب سمعنا ما كانت تبثه أجهزة الترانزيستر التي معهم من موسيقى. دموع طفرت من عيني لم يوقفها سوى حديث مرافقنا وهو يتحدث عن شرف الجنود والضباط المغاربة الذين استشهدوا في الجولان. يذكر سعيد الآن أنه هو من كان يمسح دموعي.

لكني عجبت لسعيد وهو يشتري من إحدى مكتبات دمشق كتاب "الجبرتي وكفاح الشعب"، وهو كتاب أوراقه صفراء، يقع في عدة مجلدات. كان سعيد سعيدا بظفره بهذا الكتاب، وكأنه قد حصل على كنز. لم يفكر في ثقل حمله في الطائرة، إضافة إلى الكتب التي أهداها لنا اتحاد الكتاب العرب وبعض دور النشر السورية التي تفضل مديروها باستضافتنا وإهداء إصداراتها. بدا سعيد يرقص فرحا وقد أوصل تلك المجلدات الصفراء إلى غرفته في الفندق، و لم يفكر في الحمل الثقيل وفي ما يتجاوزه ذلك الحمل الثقيل من عدد الكيلوغرامات التي تسمح لنا بها الطائرة. لأنه جميل ويحب الكتب كما هي تحبه فقد جهل أو تناسى تلك الأثقال من الكتب التي عاد بها إلى المغرب فرحا. أخذت تعويضا عن النشر في مجلات كان يصدرها اتحاد الكتاب العرب فطلب مني سعيد ألا أنفقه في المشتريات وأن أحتفظ به لدفع مقابل الكيلوغرامات الزائدة في المطار. كان يخاف من أن تبقى الكتب التي اشترها هناك، لكن مضيفينا في اتحاد الكتاب العرب رافقونا إلى المطار وسهلوا علينا مسألة حمل أثقالنا من الكتب إلى الطائرة.

-4-

عندما تم التفكير في إحداث "رابطة أدباء المغرب"، بتحريض من الكثير من الأدباء والنقاد المغاربة، تواقت ذلك التاريخ مع انعقاد مؤتمر اتحاد كتاب المغرب.

والفكرة في جوهرها، كانت لا تعني إقامة بديل عن الاتحاد، بل تعني إيجاد فضاء ثقافي جديد، وبرؤية ثقافية جديدة، يعمل على إقامة الندوات واللقاءات بشكل منظم، من أجل تخصيب أسئلة الأدب والنقد ومطارحتها مع جمهور المثقفين، ونشر مجلة أدبية تحمل اسم "الرابطة" وتنشر أعمال المبدعين والنقاد مع مداومتها على الصدور، وإصدار بعض المنشورات التي تضم أعمال الندوات.

بالمختصر المفيد، وأقولها على مسؤوليتي، فقد فكرت في سعيد يقطين رئيسا لرابطة أدباء المغرب، بدلا من أحمد المديني الذي كان قد ترشح لرئاسة اتحاد كتاب المغرب فَأُشْعِرَ من طرف الحزب الحاكم للاتحاد بأنه غير مرغوب فيه. وحتى لا يفهم أحد من الكتاب والمثقفين المغاربة أننا أسسنا الرابطة لـ "مواساة" أحمد المديني، وحتى لا يفهم أحد أننا ننشق عن اتحاد كتاب المغرب، فقد كان تصوري لرابطة أدباء المغرب هو أن نبقى في الاتحاد وأن نؤسس مجالاً جديداً لاشتغال ثقافي جديد ومتجدد، فليس من شأن هذا التأسيس أن يهدم بيتا نحن من ساهمنا في بنائه بكثير من الحب والتضحية، سيما وأنه بيت متعدد الأطياف السياسية، يعلن في كل وقت وحين أنه يمارس استقلاليته عن الدولة، فلا يقدم ولاء للملك، ولا يحب أن تتأطر نشاطاته بحضور للسلطة، رغم الصراع الداخلي والضجيج والخلط بين توجهات الأعضاء من حقوقيين لهم جمعياتهم وأطباء لهم جمعياتهم وإعلاميين لهم جمعياتهم، والفلاسفة والمتفلسفون لهم جمعياتهم، وأناس آخرين لا لهم في العير ولا في النفير. رغم تعدد الخطابات، وفتح باب عضوية اتحاد كتاب المغرب لمن نالوها ببحث في الإجازة من أجل أن يصبحوا أصواتا حزبية في انتخابات المؤتمرات، فقد كنا صابرين على أن نصبح، نحن الكتاب المبدعين الذين أنجزوا كما وكيفا في الكتابة الإبداع، غرباء في الاتحاد، حتى اتسع الخرق على الراقع، وأنا عضو اتحاد كتاب المغرب منذ سنة 1969، وأحمل بطاقة الاتحاد منذ ذلك التاريخ، أول مؤتمر هو الذي ناضلت فيه من أجل تغيير حالة الجمود التي مارسها الأستاذ عبد الكريم غلاب حتى اضطررنا إلى كتابة وتوقيع عرائض من أجل عقد المؤتمر الخامس للاتحاد. وليست هذه التوصيفات لتاريخ الكبوات والصبوات في اتحاد كتاب المغرب، سوى مقدمة لتأسيس رابطة أدباء المغرب، التي أسسناها برؤية ثقافية إبداعية ثم سطا عليها صديقي الروائي والقاص والناقد والمترجم مولاي أحمد

المديني سطوا لن أغفره له، لأنه جعل من الرابطة مملكته الشخصية، وحتى مع الانسحابات المتكررة، وحيث بقي وحيدا في الرابطة، وأفل النجم، فقد أصر على أن الرابطة باقية في شخصه، ولوحده، بقاء شبح لا يوجد في الفعل الثقافي والإبداعي. وحسب من يقرأ هذه الذاكرة أنني أسأله ما الذي كان سوف يحدث من عقلنة للتفكير والتدبير لو كان صديقي سعيد يقطين هو الذي ترأس الرابطة، أما كان سيتم نزع فتيل مولاي أحمد المديني والذهاب بـ "رابطة أدباء المغرب" نحو ما فكرنا فيه كمؤسسين من برامج ثقافية وإبداعية لها انتظامها وتوسعها في الثقافي العمومي؟ أجزم أن الحكمة لا تأتي إلا من أفواه العقلاء، ولذلك، هل كان يمكن، لو كان سعيد يقطين هو رئيس "رابطة أدباء المغرب" أن تنهار كما انهارت؟ لا أعتقد ذلك، بل أعتقد أننا سوف نصنع للرابطة صنيعا ثقافيا وإبداعيا تتوسع آفاقه وممارساته الثقافية إلى أبعد الحدود. عندما اقترحت رئاسة سعيد يقطين للرابطة، نظر إلي بعض المؤسسين وكأني أغمد خنجرا في قلب صديقي العزيز مولاي أحمد المديني. كنت لا أحب أن تكون رابطته، بل "رابطة أدباء المغرب"، وكنت أحب أن يكون رئيسها هو سعيد يقطين، ولكن تدبيرا آخر للمكتب المركزي قد وقع ببعض التوافقات بين الأعضاء المؤسسين، وهي السبب الجوهري في إخفاق مسار "رابطة أدباء المغرب".

لهذه الذكرى ما يحيلني على نخوة في طبع الصديق العزيز سعيد يقطين، الذي هو مثلي، لا يحب الألقاب والأسماء، بل يحب الفعاليات الثقافية والإبداعية بما تأتي به من تحريك لأسئلة الثقافة والإبداع.

-5-

ندوة القصة القصيرة التي قام بتنظيمها سعيد يقطين في كلية لآداب الرباط عرفت نجاحا كبيرا سواء من حيث التنظيم الذي أبان فيه سعيد مقدرته التنظيمية أو من خلال تنوع المداخلات والقراءات والشهادات. كان سعيد يقطين يأخذ نجاح هذه الندوة على عاتقه، وهي الندوة التكريمية التي كرم من خلالها الناقد المغربي الأستاذ نجيب العوفي، فزخرت مداخلاتها بأنواع المداخلات والشهادات، وكان سعيد بعمقه الثقافي وسعة صدره المنظم والمضيف.

-6-

إن كان من شيء آخر أقوله عن الصديق العزيز، الناقد الدكتور سعيد يقطين، فهو أنه عصامي رغم ثقافته الأكاديمية، لأنه أحب الثقافة والأدب، وأنتج فيهما الكثير من الكتب التي تعد ذخيرة للمكتبة العربية، كما أنني إن كنت أفخر بشيء، فأنا أفخر بصداقتي معه، التي لم تعترها الخصومات، بل رسخت وجوها المحبة الدائمة.

سعيد يقطين
علامة بارزة في الثقافة العربية المعاصرة

أحمد يوسف

(ناقد وباحث جزئري)

ليس أمام هذه الشهادة حيز متسع لكي نأتي فيه على ذكر محاسن شخصية سعيد يقطين الإنسان والباحث والمفكر والناقد، ولا الشراكة التي نبتغي تحقيقها من وراء محاورته في بعض المسائل المطروحة. واعتقد أن غيرنا من الباحثين الأصدقاء وطلاب الجامعات في الدراسات العليا قدموا بحوثا علمية حول منجزه النقدي، ما يشفع لنا الاقتصاد في العبارة. ولهذا السبب لا نزعم أننا سنقدم على بسط ما لا يتسع له المقام هنا؛ لأن هذا المنجز النقدي بمسيس الحاجة إلى صبر المتابعة وجهد الإحاطة لربط المدى النظري بالدراسات التطبيقية واستخلاص الإضافات النوعية التي قدمتها هذه الشخصية الفذة إلى الثقافة العربية بعامة والمغربية بخاصة.

سعيد يقطين اسم تعرفت إليه أول مرة مما كنت أقرأه من كتاباته الواعدة التي كانت تتميز بإصرار لا يعرف الفشل على فتح مسالك جديدة في الدراسة النقدية وعلم الأدب؛ وذلك بغية تحديث آليات النقد الأدبي في العالم العربي، وخلق تجاوز (حتى لا نقول قطيعة) لما كان. فابتدأ هذا المسار بالرغبة في تحقيق بعض الفرادة في الطرح، والجدة في ارتياد آفاق البحث، والعزيمة على تطوير أدوات التحليل.

لقد أخذ على عاتقه في الطور الأول من مساره النقدي استيعاب النظريات، وتمثل المفاهيم، والوعي بالأسس الإبستيمية التي تنهض عليها الثقافة النقدية الحداثية، بحكم المثاقفة الواعية. ويأتي هذا المسعى النقدي استجابة لمقتضيات الجوار

الجغرافي للفكر الغربي عموما والفرنسي خصوصا، ثم لجملة من الأسئلة الموضوعية المطروحة بخصوص طرائق تحليل الخطاب الروائي العربي، تحليلا لا ينفصل عن متصورات الجهاز النظري.

كانت رغبة سعيد يقطين تتمثل في ربط الأدب ونقده بالتاريخ والمجتمع، وبالفنون والأجناس الأدبية، ربطا نسقيا، مستفيدا من الإنجازات الملحوظة لثورة البنيوية. ولكن دون أن يكون أسيرا لمقولاتها المحايثة. لهذا التفت إلى النقد الذي يتعالق فيه السوسيولوجي بالنصاني ضمن ما يعرف بالنقد السوسيونصي. وعطفا على هذا النزوع انتقل الخطاب النقدي من التحليل البنيوي للسرد إلى التحليل السوسيوسردي. و لم يكتف سعيد بملامسة جوانب هذه النظرية وإنما كان يدعو إلى مساءلة موضوعها مساءلة تروم الإمساك بأدوات التحليل.

صار سعيد يقطين مرجعا نقديا يتردد ذكره في المحافل العلمية، وفي المحاضرات والندوات والملتقيات، كما أضحى منجزه النقدي موضوعا للدراسات العليا في الجامعات العربية بعامة والجزائرية بخاصة. ومنذ أن شق طريقه بصبر جميل في الدراسات الأدبية تعميما، والسرديات تخصيصا، لما ينيف عن العقدين انقادت له المعرفة انقياد العارفين، وتمثل المرجعيات النظرية تمثل الباحثين الأكاديميين، واجتهد في استيعاب أسسها الفلسفية استيعاب الدارسين الأكفاء، وأخذ موقفا نقديا من الأفكار المطروحة شأن الجهابذة الحذاق؛ حيث شرع في تقديم متصوراته للخطاب الروائي الجديد تقديما تتلاحم فيه النظرية بالتطبيق، والتثقيف المتمرس بالنقد المتبصر والتطلع إلى بناء رؤية نقدية تتدرج من التمثل والاستيعاب إلى النقد والتركيب، ثم السعي إلى رسم معالم أولية لتصور أصيل.

أحسب أن سعيدا يتوافر على حظ غير قليل من نبوغ الموهبة والقدرة الخلاقة على بناء هذه الرؤية النقدية التي تعد محصلة طبيعية لعمل دؤوب وجهد مضن في قراءته الواعية لنصوص روائية، بداية من متابعة حركة التجريب التي خاضتها بعض النصوص الروائية في المغرب، التي خلخلت عمود السرد؛ ثم اقترنت هذه القراءة بالتجربة، وجمعت جمع تشريك للدلالة، على أن الممارسات النقدية مطالبة بتجديد أدواتها النقدية على ضوء هذه النصوص المحلية. ومراجعة الاختيارات النظرية بوعي نقدي مسؤول، نظرا لتلك التحولات الفكرية والرهانات المعرفية؛ حيث أخذت

على عاتقها مساءلة مفهوم الأدب ووظيفته وأجناسه وأنواعه وعلاقته بالمؤسسة وبالتطور الحاصل في عالم الثقافة الإلكترونية. ولهذا انتهى إلى الاهتمام بدينامية النص التفاعلي وفعالية البلاغة الرقمية.

وضع سعيد يقطين نصب عينيه مهمة البحث عن تقديم وعي جديد للتراث وفق رؤية تتطلع إلى الوحدة والتماسك؛ ولهذا ألفيناه لا يكتفي بالتحصن في قلاع البنيوية لمدراسة مكونات الخطاب الروائي، وإنما يسعى إلى استدعاء السوسيولوجيا ضمن مشروع توسيع دوائر السرديات. وعدم فصل النصوص عن الذات؛ وذلك ضمن ما يسميه سعيد بـ "الحوار الهادف والبناء"، دون أن يهمل مجالات أخرى مثل الشعريات والسيميائيات وتحليل الخطاب وكذا لسانيات النص؛ ولكنه اختار السرديات مجالا نذر له الوقت الطويل من حياته الفكرية؛ لأنه يؤمن بالتخصص الدقيق نظرا لتشعبات المعرفة.

هناك وعي ملحوظ بضرورة تحديد المفاهيم، والإحاطة بالبيئة الثقافية والدعامات المعرفية التي هاجرت منها هذه المفاهيم أو تلك من أجل نجاعة تطبيقها. فمنذ البداية يفرق بين الخطاب من حيث هو مبنى حكائي والقصة من حيث هي متن حكائي. وبناء عليه ستنتسب مفاهيم السرد والزمن والتبئير من جهة إلى مجال الخطاب وستنتسب مفاهيم الأفعال والوظائف – الفواعل والعوامل– البنيات الزمانية– البنيات الفضائية من جهة أخرى إلى مجال القصة. ويرتكز هذا التحديد على معطيات التحليل البنيوي للمحكي.

وبخصوص ما أفرزته المعلوميات والبرمجيات نجده حريصا على التمييز بين الترابط النصي والنص المترابط؛ حيث يحصر النص المترابط في طبيعة السمة التفاعلية المميزة للنص سواء أكان مطبوعا أم إلكترونيا. أما الترابط النصي Hypertexte فهو ينتسب إلى النص الإلكتروني الذي تنجز فيه الوحدة بين الأجزاء والمكونات ضمن هذه الروابط.

لا ترقى هذه المفاهيم وغيرها إلى مقام "المؤسسة العلمية"دون أن تكون لها محاضن نظرية، وبناء على هذه القاعدة يعتقد سعيد يقطين أننا مازلنا في رحاب النقد الأدبي الذي لَّما يبرح مجال الممارسة دون أن تكون له القدرة على مساءلة نظرية الأدب وصلاتها بتاريخ الأدب والتلقي والأدب المقارن على نحو ما أشرنا إليه

سالفا. ومثل هذه المهمات يضطلع بها "علم الأدب" الذي يمكن القول بأنه صـــنيع "الشعريات".

لقد تعرفت إلى سعيد يقطين على الصعيد الشخصي في المغـــرب والجزائـــر فوجدته إنسانا متواضعا وعلى أخلاق رفيعة. وصاحب نظرة عميقة للحياة، يحلـــل الظواهر تحليلا يلازمه صفاء التصور وقوة الاستدلال، ويحترم آراء الآخرين، ويحتاط في أحكامه احتياط العلماء، ومنتصر للحق. فأصبح لي أخا وصديقا تجمعنا المـــودة والاحترام. إنه إضافة نوعية إلى ثقافتنا العربية بعامة والمغاربية بخاصة.

في تكريم سعيد يقطين

محمود طرشونة

(ناقد وباحث تونسي)

إن تكريم سعيد يقطين هو تكريم لقيمة ثابتة في النقد العربي الحديث ولمفخرة من مفاخر الثقافة العربية نعتزّ بها في كامل أقطار المغرب العربي. وهو تتويج لجهود بذلها طوال عقود من العمل الدّؤوب، وتكريس لعلَم من أعلام البحث الأكاديمي اجتهد وأصاب، وأعطى بسخاء عَطاء دَسِما لا غَناء لأي عمل جامعي في السرديات عن تعاليمه ونتائجه.

لقد اختار سعيد يقطين منذ أوّل عهده بالبحث الحداثةَ توجّها ثابتا لم يحد عنه، مهما كان النص الذي يدرسه فابتعد عن كل المقاربات الانطباعية والتقليديّة التي لا تغوص في أعماق النص الأدبي، بل تقتصر أحياناً على ما يحفّ به من خارجه، وتسلّح بعُدَّة نظرية اكتسبها من اطلاعه الواسع على أهمّ منجزات الحداثة الغربية، التي تَمَثَّلها تمثلا ذكيا، مستوعِبا أهمَّ مفاهيمها ومصطلحاتها ومناهجها. وما كان له فضل يذكر لو اقتصر عليها وتقيّد بها وطبّق وَصْفَاتِها الجاهزةَ تطبيقا دُغمَائيا، لكنه سعى في كامل مؤلفاته إلى مناقشتها بروح نقدية متيقظة ومراجعتها قصدَ تجاوزها والإضافة إليها. وقد وفق في ذلك أيّما توفيق خاصة في دراساته التطبيقية التي لا يحيل فيها إلى مرجعيات نظرية جامدة بل يبنيها على ما اختزنه منها في ذاكرته، وعلى اجتهاده الشخصي في فهم النصوص وتحليلها وتفكيكها.

وقد نظر إلى التراث السردي وبالخصوص ما سُمِّي منه "شعبيا" نظرة عصريّة أعادت إليه الاعتبار، فسوّى بينه وبين النصوص الأدبية "الفصيحة". ومثلما امتنع عن التمييز بين الأدب القديم والأدب الحديث، سوّى بين الرواية العربية في المشرق

العربـــي والرواية العربية في المغرب العربـــي، فدرس نصوص جمال الغيطاني كمـــا درس نصوص محمود المسعدي.. وليس ذلك من باب الصدفة إذ عمد كلاهمـــا إلى توظيف التراث في رواياته. ويوم يعمد الباحث القدير سعيد يقطـــين إلى المقارنـــة بينهما فإنه سيفاجأ أن اختياره لم يكن محض الصدفة بل أملاه توجّه مشـــترك إلى الاستفادة من التقنيات السردية التراثية، ولَوجد مصداقا لقولـــة جمـــال الغيطـــاني الشهيرة: "لو نشر محمود المسعدي روايته "حدث أبو هريرة قال..." زمنَ تأليفهـــا [1939] لتغيّر وجه الرواية العربية". ومعلوم أنها لم تنشر كاملة إلاّ سنة 1973.

وقد تجاوز إشعاع سعيد يقطين حدود المغرب العربـــي بكافة أقطاره حيـــث كان له – ولا يزال – حضور بارز في ندواته وجامعاته، بل تجاوزهـــا إلى ســـائر الأقطار العربية، يساهم في فعاليات أنشطتها الثقافية مساهمة متميّزة تغنيها وترفـــع مستوى النقاش فيها، فيكون له في الكثير من الأحيان القول الفصـــل في مســـائلها الخِلافية بفضل فكره الثاقب وسَعة اطلاعه ومقدرته الحِجَاجية، كلّ ذلك في لهجـــة رصينة تخلو من كلّ أشكال الادعاء والغرور.

وإن هذا ليجّرنا إلى التنويه بالجانب الإنساني في شخصية سعيد يقطين: فعبارة "تواضع العلماء" المعروفة نجد معناها الحقيقي في شخصه، فهو يقدّم معارف وأدلّـــة وشواهد في منتهى الأهمية لكن في أسلوب عادي جدا خلافا للكثير من المصـــابين بتضخم الذات الذين يعرضون معلومات عادية بل تافهة أحياناً ولكنهم يضخمونها تضخيما لا مزيد عليه فتبدو لغير ذي اطلاع فتوحاتٍ علميةً في حين أنّها في منتهى الابتذال. وفي المقابل فإننا لم نره قط يستنقص مجهود غيره مهما كانـــت قيمتـــه، فينـــزّله منـــزلته الحقيقية، لا يقلّل من أهميّته ولا يبوئه أعلى المراتب إذا لم يكـــن جديرا بها. ذلك لأنه هو الآخر لا يريد تسلّق أعلى المراتب عن طريق الحـــطّ مـــن قيمة أقرانه بل بالعمل الدؤوب والتعمق في تناول عَصيِّ المسائل.

وفي الختام نرى أن شخص سعيد يقطين وحصاد ما قطعه من عمره إلى حـــدّ الآن مكسب هامّ ولَبِنة صُلبة في صرح ثقافتنا العربية عموما والمغاربية خصوصا.

سعيد يقطين
المسكون بالتفاعل دائماً

نادر كاظم
(ناقد وباحث بحريني)

في العام 1992 نظّم قسم اللغة العربية بجامعة البحرين مؤتمراً للنظريات النقدية الجديدة، وقد تمكن المؤتمر من استقطاب أسماء لامعة هم من نخبة النقاد العرب، وخاصة نقاد الموجة الجديدة الذين شرعوا في التأسيس لنقد عربي جديد أرادوه مختلفاً ويمتاز بالعلمية. آنذاك كنت في السنة الثانية من حياتي الجامعية، وكنت مشدوداً لحضور جلسات المؤتمر لأستمع لنقاشات محتدمة وثرية أدارها المرحوم عز الدين إسماعيل، وجابر عصفور، وكمال أبو ديب، وصلاح فضل، وعبد السلام المسدي، وعبد الله الغذامي وآخرون. كانت هذه أسماء مألوفة لنا، إلا أن اسماً كان يتردد صداه بين جلسة وأخرى، وصادف أني سمعت جابر عصفور وهو يتحدث ويمتدح ناقداً شاباً اسمه سعيد يقطين.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسم سعيد يقطين، وكان من دواعي سروري أن وقعت، بعد المؤتمر، على كتابين لسعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي (1989)، وانفتاح النص الروائي (1989). انكببت على تفحص هذين الكتابين، ومن ذلك اليوم بقيت حريصاً على متابعة كل ما ينتجه سعيد يقطين.

نعم، يستحق سعيد يقطين أن نعترف له بأنه واحد من أوائل النقاد العرب الذي أخذوا على عاتقهم تأسيس ما صار يعرف بـ "حقل السرديات العربية". فبعد عقود متطاولة من المقاربات النقدية التجزيئية والأيديولوجية والانطباعية

والتسطيحية، ها هي منجزات سعيد يقطين وجيله تضع الرواية وجملة السـرديات العربية على السكة الصحيحة من الاهتمام النظري المنضبط منهجياً.

لكني أتصور أن هذه الريادة هي واحد من أبعاد كثيرة تؤطر تجربـة سـعيد يقطين النقدية، إلا أن البعد الأهم في هذه التجربة أنها تبقـى مسـكونة، دومـاً، بالترابط والتفاعل والتناص والارتباط والتعالق. أراد يقطين، في العـام 1989 وفي "انفتاح النص الروائي"، أن يؤسس لـ "مشروع متكامل لبحث التفاعل النصي"، وها هو في العام 2005 وفي "من النص إلى النص المتـرابط"، يؤسـس "جماليـات الإبداع التفاعلي".

يتأسس التفاعل والترابط على حقيقة أن النص – وقل ذلك عـن الـذوات والثقافات وكل شيء – ليس بنية مغلقة ومعزولة ومكتفية ذاتياً، بل هو في علاقـة مستمرة، وفي انفتاح لا يهدأ مع نصوص أخرى، وسياقات أخرى، ومؤسسـات أخرى، وسلطات أخرى، وهكذا. هو خروج بالنص من أناه إلى أفق الآخر.

يبقى التفاعل من مرتكزات النص، كما يبقى سعيد يقطين مسـكوناً بهـذا التفاعل الذي يسعى إلى تأسيس جمالياته في الثقافة العربية.

سعيد يقطين
كينونة السرد القصوى

عبد الحق بلعابد
(ناقد وباحث جزئري)

اقرأني... فإني هذا الكتاب

لما يحين الكلام عن أهل الكلام والخبر، لا يمكن للقارئ إلا أن ينصت لصمت العبارة، التي تشتاق لصوت سعيد يقطين وهو يعيد ترتيب سرد العالم حكاية ورواية، هكذا عرفته وهكذا أعرفه...

عرفته كتابا فأحببت قراءته

أعرفه إنسانا فأحببت صحبته

شعاره اقرأني... فإني هذا الكتاب المفتوح على السردي والمنفتح على الدنيوي

سرد المعرفة... سرد العرفان

عرفته مرة أخرى فأحببته مرات...

لا أدري كيف جمعتنا به قيروان الحضارة، قيروان التاريخ مرتين...

مرة في قيروان العتبات أين شاركنا في مؤتمر دولي حول خطاب العتبات وكان هو موجودا قبلنا باعتباره أستاذا زائرا في جامعتها، فكان هذا أول لقاء جمعنا أين سادت فيه هيبة المتعلم للعالم، غير أنه بلباقته بادرني بالسلام ليبدد ذلك المخيال الذي ينسجه باحث العلم لمن يعشق القراءة له، في تلك الأيام الأربع عرفته عن

قرب خارج الجلسات الرسمية، كان نموذجا للباحث القلق الذي لا يركن للجاهز نناقش وضعية النقد المغاربي والعربي الآن وكيفية تقريب وجهات النظر، وفي وضعية التعليم العالي في الوطن العربي وسبل إصلاحها، لتخرج بنا الجلسة من سرد العلم إلى سرد العالم وما فيه من حكايات اليومي والمعيش، فأجد فيه الإنسان الطيب المتواضع الذي لا يرضى بالظلم والفقر المستشري في العالم... أهذا هو سرّ القيروان أم هي تخفي أسرار لقاءات آتية... نخمن الآن فنتذكر سرديات الأجداد المرتبطة بالقيروان... أين كانت جدتي تراهن جدي قائلة وهي تحكي عن القيروان وما فيها من عادات وتقاليد وعلماء:

- تموت يا حُمه عمران وما تشوفش القيروان...
- فيرد قائلا وهو يشير إلي: تعيشي وتشوفي يا أم الخير عمر... ويحكي لنا هذا الصغير على ما شاف فيها...

لم يعيشا لأخبرهما أنني التقيت بكبيرنا الذي علمنا السرد وحببنا فيه... فهذا من سرد العرفان...

أما سرد المعرفة الثانية... فكان في القيروان أيضا، بعد أن تكونت بيننا صداقة علمية وأخوية، فجمعنا مؤتمر الاستشراق، وكان المكرم فيه عالمين كبيرين هما محمد مفتاح وهشام جعيط، وقد ألقى سعيد يقطين كلمة تكريمية في حق أستاذ الأجيال محمد مفتاح ما أزال أذكر كلماتها الصادقة والمؤثرة فيقشعر بدني للوفاء العلمي والإنساني من قبل سعيد يقطين لأستاذه محمد مفتاح يتكلم عنه بوقار يخفض عينيه للأرض ثم يرفعهما للسماء كأنه يتذكر سنوات التحصيل العلمي تختنق العبارة فتسعفها العبرة... فأقول في هذا المشهد المحفل هذا الإمام وهذا طالبه، فكلاهما مراد وكلاهما مريد، تعلمت في هذه اللحظة من سرد المعرفة كيف يكون تقدير العلماء لبعضهم وتواضعهم لبعضهم، في نفس اللحظة تذكرت جدتي وهي تذكر صلحاء القيروان وفضائلهم، وهي تقول في بدء سردها: هذه القرعة جاتني كاشتي من القيروان في داخلها اخبار واسرار...

كانت تحكي لي سر هذه القارورة المختومة، التي أودعت فيها حكايات عن أهل القيروان وصلحائها... أكان يا ترى من أسرارها التي لم تخبرن بها أن ألتقي بأحد ورثة السرد ومحكياته في الوطن العربي... فهذا من سرد العرفان، فحق له التكريم.

الإنسان... ذلك الكائن السردي

إن مشروع سعيد يقطين مشروع مفتوح، يتخذ من الشعريات إطاره العام، ومن السرديات مشغله الخاص، لأنه يرى بأن السرد موجود في كل شئ تماما كالحياة لهذا نجد انتقالاته المعرفية من السرديات النصية إلى السرديات الرقمية، فمنذ كتابه القراءة والتجربة ما يزال قارئا مجربا في حقل السرديات الفسيح قديمها وحديثها، فمشروعه مؤجل إلى حين لأنه باحث لا يؤمن بالمشاريع المغلقة، ولكن كل ما يقدمه قابل للمراجعة والمناقشة لهذا اتسم مشروعه السردي بالانفتاح المستمر.

يعد كلا من كتابه تحليل الخطاب الروائي وانفتاح النص الروائي، مرجعين بل مصدرين مهمين في السرديات العربية لا يمكن أن نطالع كتابا ولا بحثا ولا مداخلة متخصصة في السرديات إلا وترجع إليهما لتأطير مداخلها النظرية، أو الاستعانة بهما في مشاغلها التطبيقية، وقد أصبحا من بين المقررات الدراسية المتخصصة لطلاب الدراسات العليا في جامعات الدول العربية، لما يطرحانه من عمق نظري، واجتهاد تطبيقي، فإن كان كتاب تحليل الخطاب يعنى بالمباحث التركيبية للخطاب، فإن كتاب انفتاح النص الروائي يعنى بالمظاهر الدلالية للنص، فهذا الأخير يعد امتدادا وتوسيعا للكتاب الأول باحثا عن أفق اشتغالي جديد لما يعرف عند يقطين بسوسيوسرديات النص الأدبي، وهذا رهان الإنسان السردي الذي دائما يترك مشروعه العلمي منفتحاً على كل مقاربة جديدة.

ليطالعنا كتاب (الرواية والتراث السردي، 1992)، مبرزا لنا الوعي الجديد والمتجدد عند الروائي بتراثه السردي العربي والإسلامي، من خلال محاورة أشكاله ومساءلة موضوعاته معتمداً على مبدأ التفاعل النصي بين النصوص قديمها وجديدها وهذا ما حصل بين نص الزيني بركات ونص بدائع الزهور، وبين ليالي ألف ليلة وليلة، وألف ليلة وليلة، وبين نوار اللوز، وتغريبة بني هلال، وبين ليون الإفريقي، ووصف إفريقيا، كاشفا عن تلك العلاقات النصية البانية للعوالم التخييلية للروايات المشتغل عليها، وهنا يبرز الإنسان السردي الذي تسكنه محكيات القديم فيريد تجسيد إمكاناتها في السرد الجديد.

ومن بين مزايا المشروع السردي اليقطيني المنفتح أن خواتم كتبه والتي تعد نصوصا موازية بامتياز، بطرحها للعديد من القضايا السردية التي يترك فيها الباحث المجال مفتوحا للإجابة عنها في كتبه اللاحقة والتي يذكرنا بها في مقدمات كتبه، وهذا وعيا منه بإستراتيجية العتبات، ففي كتابه المخصص للسرد القديم (الكلام والخبر، 1997)، والذي يعده مقدمة للسرد العربي، جعل منه امتدادا لما قدمه في الكتاب السابق الخاص بالرواية والتراث السردي، ومجمل دراساته في حقل السرد العربي القديم، إذ تشكل عنده السيرة الشعبية مدونة سردية متكاملة حكائيا ونصيا، إذ يرى فيها أنها تمس الإنسان العربي في ذاته وصيرورته وآفاقه وهو يتمظهر فيها ككائن سردي، لتتجسد هذه المقدمة للسرد العربي عمليا في كتابه (قال الراوي، 1997)، والذي يعده محاولة لتأسيس سرديات للقصة التي أهملت طويلا أمام سرديات الخطاب أو البحث في دلالته ومعناه عند السيميائيين وهنا تكمن أهميته.

وفي سعيه الدءوب لتوسيع أفق بحثه السردي، يطالعنا سعيد يقطين بمدخل جديد للدرس السردي، بأن يحول دفة الدراسات السردية من النص إلى النص المترابط وهو عنوان كتابه الذي أحدث نقاشا كبيرا في الأوساط الأكاديمية، غير أن مقدمته جاءت موضحة لهذا المدخل البحثي الجديد من الكتابة السردية (l'écrit) إلى الشاشة الرقمية (l'écran)، وهو يحتكم كباقي كتب سعيد يقطين لمبدأ الانسجام المعرفي إذ تبين خاتمة كتابه (الأدب، المؤسسة، السلطة) أين تعرض إلى التفاعل الحاصل بين الأدب والمؤسسة ووسائل الإعلام في الشأن الثقافي، ليطوره الباحث في كتابه (من النص إلى النص المترابط)، والذي يرى فيه مدخلا مهما لجماليات الإبداع التفاعلي باعتباره أداة جديدة للتواصل بين الكاتب والمتلقي، كونه وجه جديد للتجريب الكتابي والسردي داخل المؤسسة السردية العربية من جهة، وجه متجدد للمقاربة داخل المؤسسة النقدية العربية من جهة ثانية.

هذا هو سعيد يقطين الذي يحاول دائما تقديم الجديد للساحة النقدية العربية فهو يعد اليوم من مؤسسي النقد الإلكتروني والتنظير للسرد الإلكتروني الرقمي، محاولا خلق وعي رقمي، وثقافة إلكترونية لدى المتلقي العربي، وهذه غواية السرد التي يحبها سعيد يقطين.

السرد... وإن غوى

عود على بدء سردي...

أتذكر الآن جدتي وهي تعد مسندها للبدء بـــ (غـــ)(ر)واية السرد

وأنا ألح عليها الدخول في عوالمها السردية... تقول:

واش نحكي واش أنخلي أنا راني حكاية

أذكر في هذه اللحظة أيضاً بول ريكور وهو يبحث عن الهوية السردية قـــائلا بعد طول تأمل:

نحن حكاية، معبرا على أن كل إنسان يسرد حكايتـــه الخاصـــة لقـــول ذاتيته

فبين غواية النص الشفوي/الشعبـــي، وإغواءات النص الكتابي/العالم تسكن الكينونة القصوى لإشتغالات سعيد يقطين السردية، غير أن غوايات البحـــث السردي لا تنتهي عند هذه المكانـــة (الســـردية)، ولكـــن تطمـــح للـــتمكين (السردي)، فهو يعد العدة لهذا التمكين السردي من خلال الاشتغال على نص سردي أقصى وهو القرآن الكريم بإمكانيات سردية قصوى، فنحن في الانتظار المؤجل دائما، وهذا من أسرار استمرار المشروع السردي اليقطيني الذي يطالعنا بكل جديد.

ختاما

هذا الإمام وهذه كتبه

فحق له هذا التكريم

لا يمكن لكلمة ولا لكلمات أن تفي بحق هذا الناقد المفكر، الذي مـــا يـــزال يفكر فينا، ويفكر من خلالنا، ويفكر في غيرنا، أسئلة سردية ومعرفية كثيرة نـــتمنى أن يسعفه الوقت والعمر للإجابة عنها، من خلال الجهود العلمية والأكاديمية الـــتي رسخها في العالم العربـــي عامة وفي المغرب تحديدا، والـــتي اســـتطاع بفضـــلها الباحثون في حقل السرديات الاستفادة منها في كتبهم وأبحاثه، وهذا ما شرفني بـــه شخصيا لما قدم لكتابنا المتواضع عتبات، قائلا في إهدائه عتبة إلى عتبـــات، فجـــاء

علينا الدور لنرد بعضا من حسناته العلمية والمعرفية، لنقول سعيد يقطين من العارفين اللذين ينطقون بلسانك المعرفي وأنت صامت، **ففي مشيته سّر، وفي جلسته فهم، وفي وقفته علم.**

سعيد يقطين:
المثقف الملتزم

عبد اللطيف البازي
(ناقد مغربي)

ارتبطت صورة الباحث والناقد سعيد يقطين لدي بفكرة ما عن الشهامة والمسؤولية والسخاء. ملامحه التي تعلن عن صرامة تعرف فيما بعد أنها ليست حقيقية ونظراته الرصينة وتقاسيمه الجنوبية وطبيعة تدخلاته الهادئة والمتحمسة في نفس الآن جعلتني أكن له تقديرا من نوع خاص واحتراما تنامي مع مرور الأيام رغم أنه لم تتح لي فرص كثيرة للاقتراب منه. وكنت قد تعرفت عليه كاسم وكناقد شاب يتم التنويه بكتاباته في منتصف الثمانينات بظهر مهراز فاس في محاضرات أساتذتنا محمد السرغيني وحسن المنيعي ورشيد بنحدو، كتابات اعتبرت حينذاك مبشرة برؤية جديدة في مقاربة الإبداعات المغربية تحديدا.

كان تعاملي الأول مع الأستاذ سعيد لما دعوته، في خريف 1989، للمساهمة في تقديم رواية "دليل العنفوان" لصاحبها الأديب عبد القادر الشاوي. كان عبد القادر عائدا حينذاك من إقامة طويلة ومنهكة وقسرية بإحدى قلاع سنوات الرصاص ببلادنا، وكنت مشرفا بتكليف من الشاعر محمد الميموني على تنظيم اللقاء وتدبير ترتيباته الإدارية وكذا المساهمة فيه إلى جانب الأستاذ عبد الحميد عقار. وقد نجحت المداخلات في إثارة انتباه جمهور كثيف ونوعي وقد اقترب مني الأستاذ سعيد وقال كلاما جميلا في حق اللقاء وفي حق مداخلتي التي كنت قد عنونتها "هل الحديث عن الذات حق مشاع؟" وسألني إن لم أكن أمانع في أن تنشر وبالطبع وافقت وشكرته على سخائه وثقته. وبالفعل نشرت مداخلتي في عدد 30

دجنبر 1989 من جريدة "أنوال" ضمن ملف خاص عن الرواية المغربية مع تقديم ورد فيه إلى جانب اسمي صفة الباحث فشكل ذلك بالنسبة إلي مفاجأة سارة وهدية لا تقدر بثمن خاصة وأنني كنت أعيش حينذاك ظروف تيه وحيرة ضاغطة. ثم إنني اعتبرت نشر المداخلة بمثابة "تعميد" لي وما يشبه الاعتراف الرمزي بي كأحد النقاد المغاربة المحتملين. وعلى إثر فوز رواية "ليلة القدر" بجائزة الغونكور أرسلت للأستاذ سعيد مقالة بهذا العنوان الذي أردته مثيرا "هل ينبغي إحراق الطاهر بنجلون؟"، وقد سعدت بنشر الدراسة في إخراج جذاب، وعند لقاء لي بالأستاذ سعيد علقنا بمرح على عنوان المقالة المستفز.

صادف كذلك أن التقينا بالرباط في بعض اللقاءات الثقافية أو بمقر "اتحاد كتاب المغرب" قبل أن تعصف بهذا الإتحاد رياح ليست بالتأكيد طيبة. وكأني بالأستاذ سعيد قد استشعر أن الأمور كانت في حاجة إلى رجة وإلى مراجعة لذا لم يتردد في أن يتبنى رفقة الأديب أحمد المديني مشروع "رابطة أدباء المغرب" بحثا عن الرحابة وعن الجديد، وإن لم يفقده هذا "الانتقال" تقدير وصداقة أصدقائه. ولقد حدثته ذات لقاء بمرتيل عن مشروع مجلة "عن الكتب" التي كنت أتهيأ لإصدارها بمعية مجموعة من الأصدقاء، وقدم لي رأيه بسخاء وتواضع ونبهني إلى بعض المنزلقات التي علي تجنبها وأكد بحماس على أهمية الفكرة مما جعلني أتخلى عن بعض ترددي. وقد ساهم في العدد الأول من المجلة المذكورة (عدد شتاء 2010) بمداخلة عن رواية "باريو مالكا" لصديقنا المشترك الكاتب والباحث "محمد أنقار"، وهي نفس المداخلة التي كان قد قدمها بالمركز الثقافي "الأندلس" بمرتيل تلبية لدعوة وجهنها إليه أنا والأستاذ أنقار للمشاركة في لقاء دراسي حول الرواية المشار إليها. وكان ذلك اللقاء دسما ورصينا أبان فيه الأستاذ سعيد، كالعادة، عن دربة وعمق وسعة في الصدر لحظة النقاش وعن احتفاء خاص بقيمة الصداقة.

والعديد من أصدقاء الأستاذ سعيد يلحون عليه في الجلسات الخاصة وغير الخاصة على أن يوقف اهتمامه، ولو لفترة، بالآخرين وبنصوص الآخرين ويخصص جهده ووقته لإكمال روايته أو نصه السردي الذي نشعر دوما حين إثارة الحديث عنه أنه معتز به أيما اعتزاز. لكن حس المسؤولية وترتيب خاص للأولويات بالإضافة إلى طبيعة الرجل المتكتمة نوعا ما وتعففه وعدم سعيه إلى

النجومية السهلة، ربما جعلت هذه العوامل مجتمعة أن هذا المشروع ظل إلى الآن حبيس الأدراج.

وما أثارني دوما في المسار الثقافي والعلمي للباحث سعيد يقطين هو عدم تهيبه من الانتقال من حقل معرفي إلى حقل معرفي جديد واستثماره لمختلف المناهج والمعدات النظرية المتاحة مستندا في ذلك إلى فضول رفيع: فمن الرواية المغربية انتقل إلى الرواية العربية ومن النص التراثي إلى النص المترابط ومن اتحاد كتاب المغرب إلى اتحاد كتاب الإنترنت العرب الذي انتخب مؤخراً رئيساً له. والمتأمل في هذا التطور لا يجده ينبني على قطائع فجائية وغير منتظرة بل على انتقالات هادئة مبررة ولها منطقها الداخلي. كما أن الانشغالات المعرفية لصاحب "ذخيرة العجائب العربية" لم تمنعه في أكثر من مناسبة من الإعلان عن رأيه دون تلعثم بخصوص ما يعرفه مجتمعنا المغربي من رجات وما يتربص به من أخطار. وتلك خاصية من خاصيات الكائنات المسؤولة والشهمة.

كرمة النص

لحسن لعسبي
(شاعر وصحفي مغربي)

أنا هنا، أشبه، بمن ظلت الكلمات محبوسة في حلقه من زمان، تنتظر أن تقول ذاتها بفرح، لأنها كلمات التلميذ لأستاذه في الأول والأخير، ومثل هذه الكلمات، لابد لها أن تكون مبللة بذات الروح التي يتعلمها الطالب البوذي من أستاذه، حين يأخذ هذا الأخير، عنقه بلين ويغطس رأسه في الماء، حتى يضيق التنفس منه، ثم يخرجه ويطلق فيه تلك الكلمات النافذة، الراسخة، العميقة، درسا للحياة: "عليك أن تحب الحقيقة وتبحث عنها، كما أحببت الهواء وأردته الآن"..

كنا في لحظة استراحة بين ساعتي درس.. تقدمت نحوه بخطو الفتى الذي كنته، وطلبت منه السماح لي بتخصيص الساعة المتبقية من الحصة لعرض حول منع أربع مجلات ثقافية مغربية من الصدور دفعة واحدة (هي: الثقافة الجديدة، الجسور، البديل، الزمان). أنصت لي بذات الهدوء الذي كان يميزه، هدوء العالم، وشرع يربت على كتف معلوماتي كي يستخرج مني بلين أسباب اختيار تلك المجلات، المحسوبة على اليسار المغربي، طال الشرح، وبقينا أنا وإياه، الأستاذ وتلميذه، نلعب لعبة الاستكشاف بفرح، وباقي الزملاء التلاميذ قد عادوا إلى كراسي الدرس، وجلسوا يتأملون ذلك المشهد غير المعتاد الذي طال.. وبعد أن أعياهم التأمل والسؤال، انخرطوا في حوارات ثنائية، وبقينا نحن في حوارنا الثنائي الحميمي العميق ساعة كاملة.

قادنا الحديث إلى والدي، المدرسة التي تعلمت منها كل شيء، مواقف وسياسة ومبادئ، وهو الوالد الذي سيتأكد الأستاذ يقطين من طينته حين أصر

على زيارته في بيتنا الشعبي بعين الشق بالدار البيضاء، أياما بعد أن اعتقلت وأنا طالب بكلية الآداب، حينها قال الأستاذ يقطين لصديق مشترك، ساعده في الوصول إلى عنوان البيت، جملة لم يقلها لي قط مباشرة ولا حدثته عنها قط إلى اليوم، وهي الجملة التي وصلتني بفرح، قال فيها: "ألم تنتبه معي أن الرجل لم يكلمنا قط عن ابنه المعتقل، بقدر ما كلمنا عن مصير البلاد؟!".

كنا أربعة، نجلس في آخر الصف [محمد معتصم، الناقد الأدبي المعروف اليوم – عمر حيشان أستاذ اللغة الإنجليزية المتفوق – حسن الراضي أستاذ التعليم الابتدائي النزيه والمثال – وعبد ربه]، كنا منطلقين ربما أكثر من اللازم، وكان هو الوحيد الذي نجح في أن يلجم اندفاعنا الغر، بشيء واحد: المعرفة، بل غزارة المعرفة التي كان يصدر عنها، لقد حكمنا بالعلم المخزن في القلب، وكانت طريقته المختلفة في التدريس، قنطرة عبور نحو محبة محترمة للإنساني الذي كان يشع منه، وحين جاءت نتائج الامتحانات، قال فينا جملة لم تكن عابرة بالنسبة لنا، في ما معناه: "ذلك الرباعي استحق احترام الجميع من الأساتذة"، كنا قد حصلنا جماعة على نفس درجة التشجيع المطلة على التنويه، حين كانت الدرجات التقييمية لا تزال لها قوتها التربوية والرمزية، ولا تمنح بغير كثير من الجهد المعرفي والتحصيل المدرسي الدؤوب.

مرت السنة الدراسية، ومر أساتذة كثر، وكانت تلك الجملة سببا لأن يبقى ذلك الرباعي مجتمعا إلى اليوم، فقد مرت 29 سنة، منذ أطلق فينا يقطين جملته التربوية النافذة تلك، ولا نزال أوفياء للتوصيف الذي خصنا به. من زملاء فصل، صرنا أصدقاء درب. ومن أصدقاء درب، أصبحنا إخوة حياة.. وكل الزملاء الذين درسوا معنا حينها، والذين تفرقوا في الأصقاع، لا يزالون إلى اليوم، كلما ذكر اسم سعيد يقطين، يقف الاحترام فيهم سامقا في الدواخل، في ذلك البراح الشاسع للمحبة. ففي باريس أو كوبنهاغن أو لندن أو برشلونة أو روما أو نيويورك أو الرباط أو سلا أو زاكورة أو برلين أو طنجة أو مراكش... وصف المدن التي تفرقنا فيها لأسباب العيش والحياة، كل واحد منا فيه شيء من يقطين، ذلك الأستاذ الهادئ الذي يلج الفصل، ولا يطلب الصمت قط، بل يدفعنا تواضعه وسموه المعرفي، أن نخجل لوحدنا ونصمت (هكذا كان يفعل طه حسين أيضا، كما

أخبرني بذلك المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي)، وكنا جميعنا مأخوذين بخطه الجميل حين يرسم الكلمات، وليس يكتبها، على السبورة، ومعه تعلمنا أننا نملك ملكات إبداع تستحق أن تكبر، وأهمها كيف نكون رجالا ونساء ناجحين وناجحات، في الدرس وفي الحياة.

قرأت، مثل الكثيرين في كل العالم العربي، وليس فقط في المغرب، كل إصدارات الدكتور سعيد يقطين، وكنت أسعد أن يثار اسمه في عواصم المشرق العربي أمامي، في دمشق وبيروت والرياض والقاهرة (في مناسبات ثقافية متفرقة)، فأكمل بأن أعلن أمام الجميع، تشرفي أنني واحد من تلامذته.

قرأت إذن بمتعة هائلة كل أبحاثه العلمية الرصينة والدقيقة، وأفدت منها الكثير الكثير. لكن، أجمل نصوصه التي لا أنساها قط، والتي أتحسر اليوم أنها ضاعت مني بعد أن كنت جمعتها، تلك التي نشرها مسلسلة في جريدة "أنوال" عن تطور مدينة مثل الدارالبيضاء، وعن قصة أهل حداوة، وقصة الجياد التي تموت نحوتها على إسفلت المدينة، وعن "كرمة النص"، أي تلك التينة العتيقة التي كانت في الطريق بين الدارالبيضاء وبلدة مديونة، في الطريق إلى مراكش، فقد كانت هي العلامة على أنك في منتصف الطريق.. في تلك الكتابة اكتشفت يقطينا آخر، مختلفا عن صرامة الباحث العلمي، استعدت فيها يقطين الذي أعرفه، ذاك الرجل الشاعر، الذي ينظر إلى الحياة بعين مفارقة، هي ذاتها التي كان يمارس بها الدرس التربوي في فصل من فصول ثانوية المصلى بالدارالبيضاء، سنة 1982.

كان خيمة معرفية هائلة.. كان خيمتنا التي ظللنا نستجير بها، ولا زلنا، كلما ضاقت بنا سبل الفهم في درب الحياة.

شكرا أستاذي سعيد يقطين، أنك علمتني كيف أكون رجلا.